جامعة الأزهر
مركز صالح عبد الله كامل
للاقتصاد الإسلامي



Al-AZHAR UNIVERSITY
S.A. KAMEL CENTER
FOR ISLAMIC ECONOMICS

ندوة

«الجوانب الاقتصادية في حياة الأنبياء عليهم السلام»

يوم السبت ٢٠ صفر ١٤٢٥هـ الموافق ١٠ أبريل ٢٠٠٤م

الاقتصاد في حياة النبي محمد ﷺ

إعداد

الأستاذ الدكتور/ عبد الحليم عويس

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
جامعة الزقازيق

مدينة نصر – القاهرة – جمهورية مصر العربية
تليفون ٤٠٣٧٥١٤-٢٦١٠٣٠٨ – ٢٦١٠٣١١ – تليفاكس ٢٦١٠٣١٢
Nasr City, Cairo, Egypt, Tel.: 4037514-2610308 - 2610311, TelFax: No. 2610312
www.SAKC.gq.nu
E-mail: salehkamel@yahoo.com

موقع مكة وأهميتها الاقتصادية

نشأ (محمد بن عبد الله) بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي (الرسول ﷺ) في مكة المكرمة التي تقع في منتصف الطريق المُعَبَّد للقوافل بين اليمن والشام في وادٍ من أودية جبال السراة ، تحفه الجبال من كل جانب (غير ذي زرع) ، وهي تحيط بوادٍ غير فسيح، تكاد تحصره لولا منافذ ثلاثة ، يصله أحدها بطريق اليمن ، ويصله الثاني بطريق قريب من البحر الأحمر (بحر القلزم) عند مرفأ جدة ، ويصله الثاني بالطريق المؤدي إلى فلسطين[١].

وتقع مكة على ٢١ درجة ونصف درجة تقريباً عرضاً شمالياً وعلى نحو ٤٠ درجة طولاً وترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٨٠ متراً ، وجوّها حارّ جافّ تختلف حرارته بين ١٨درجة في شهور الشتاء ، ومن ٣٠درجة إلى ٤٥درجة في شهور الصيف .

وقد سماها القرآن مكة كما سماها بكة وأم القرى والبلد الأمين [٢] .

ونظراً لهذا الموقع المهم في العالم القديم والذي يُمثل قلب الجزيرة العربية كان العرب بعامة ــ ومكة بخاصة ــ على صلة مباشرة ودائمة بكل العالم القديم شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوبا ، وكانوا الأمة الوحيدة على الأرض التي تتصل بالعالم كله، ولا يتصل العالم ببعضه البعض إلا من خلالها وعن طريقها .

ومن هنا كان العرب على اتصال دائم بجميع الحضارات سواء منها ما أقاموه لأنفسهم داخل الجزيرة في اليمن وحضر موت وغيرهما ، أو ما أقاموه على أطراف الجزيرة وخارجها في العراق والشام ومصر، أو ما أقامه غيرهم في الهند وفارس وروما .... [٣] .

ومن الناحية الاقتصادية كان لموقع مكة بين حضارة الشمال المُمَثَلة في دولتي الروم والفرس وحضارة الجنوب الممثلة في دولتي اليمن والحبشة . أثره الاقتصادي الذي دفعها إلى الازدهار فكانت محطة لقوافل التجارة القرشية والعربية ومحطة في تبادل السلع من وإلى الحضارتين المذكورتين سلفاً .

---

(١) نواف بن صالح الحليسي : ــ تجارة الأمين محمد مع قوافل قريش وتطورها في الإسلام ص١٠٢، ٩٧. طبع الرياض ١٤٢١هــ.

(٢) أحمد السباعي : تاريخ مكة ص١٥ ط نادي مكة الثقافي ١٩٩٤م ط / السابعة .

(٣) محمد رشاد خليل : ملامح من دَوْرِ الإسلام في بناء العمارة (الحضارة) العربية قبل البعثة المحمدية ص٦٧١ ط ١٤٠٢/١ .

ومع بداية القرن السادس الميلادي بدت مكة وقد أمسكت بزمام التجارة في بلاد العـرب ، وقد أتاح لها موقعها الممتاز في وسط طريق التجارة البري المار بالحجـاز ، وقيـام البيـت الحرام الذي انعقد إجماع العرب على تعظيمه والحج إليه ، كمـا أنهـا بعـدت عـن منطقـة التصارع الدولي لبعد موقعها ، فنجت مما أصاب غيرها من أطراف الجزيـرة العربيـة مـن الوقوع في مجال العراك القائم بين الشرق والغرب :(الفرس والروم) .

وقد أتاح لها هذا ، كما أتاح لها موقفها الحيادي أن تمثل دور الوسيط المحايـد فـي نقـل التجارة التي كانت ضرورية لكل من الطرفين المتنازعين وبذلك تمتعت بظـروف اقتصـادية طيبة من مزاولتها للتجارة بشقيها : الداخلية والخارجية .

وقد أجرى رجال مكة الترتيبات التي تكفل لهم الانتفاع بهذا الظرف واستثماره عل أكمـل وجه ، ونجحوا في ذلك إلى حد كبير، وجنوا من وراء ذلك ثروة كبيرة جعلتهم يحتلون مركـز الزعامة في بداية القرن السابع الميلادي [1] .

وكانت مكة ــ إلى جانب هذا ــ من أهم مراكز الصرافة في العالم القديم ، وكان التـاجر من أي بلد في الآفاق يستطيع أن يأمن فيها على بضائعه صادرة أو واردة ، وربما احتاج إلـى كثير من المال لسداد ما تطلبه بضائعه فتقرضه المصارف في مكة، كما تفعل البنوك اليوم [2]

(١) نواف بن صالح الحليسي :ــ تجارة الأمين محمد ص١٠٤، ١٠٥.

(٢) أحمد السباعي :ــ تأريخ مكة ص٤٠.

الحياة الاقتصادية في الجزيرة العربية قبل الإسلام وريادة مكة

فرضت الظروف البيئية على سكان الجزيرة العربية أن يكون اقتصادهم مرتبطا بالظروف الطبيعية ، فبينما فرضت هذه الظروف على أهل مكة الاعتماد على التجارة وقوافل الحجيج ؛ نظراً لأن مكة تقع في واد غير ذي زرع ، وتشرف عليها جبال تزيد في قسوة مناخها ، وفي عدم صلاحية أرضها للزراعة ، كانت (يثرب) على العكس من ذلك ، فظروفها الطبيعية تسمح لها بالاعتماد على الزراعة ــ ولا سيما النخيل ــ كمصدر من مصادر الرزق ــ فهذه المدينة التي أصبحت ــ (مدينة الرسول) تتكون من شعاب ، وفي الشعاب بساتين صغيرة ، وفي البساتين آبار يستقي الناس منها للشرب والسقي والغسل ، ومع أن مكة تتكون مثل المدينة من عدد من الشعاب ، إلا أن جو يثرب على العموم ألطف من جو مكة ، فالماء متوفر بعض الشيء فيها ، وهو غير بعيد عن سطح الأرض، ومن الممكن الحصول عليه بسهولة بحفر آبار بجوار البيوت ، ولهذا صار بإمكان أهلها زرع النخيل ، وإنشاء البساتين والحدائق ، والخروج للتفسح إلى أطراف المدينة [1].

لكن هذه الإمكانيات الزراعية لم تمنع أهل يثر ب من العمل بالتجارة ؛ فقد خرجوا إلى أسواق الشام يتجرون بها ، وكان يهود يثرب يتاجرون أيضا ، ويأتون إلى أهل يثرب عامة كل ما يحتاجون إليه من حاجات ، كما كان ينزل المدينة قوم سموهم (الساقطة) يجلبون إلى أهل يثرب كل ما يحتاجون إليه من البرُ والشعير والزيت والتين والقماش ، وما يكون في بلاد الشام[2]، ومع ذلك يقومون بتسقّط الأخبار لحساب الروم أو اليهود أو غيرهم .

وفي ضوء هذا يمكننا القول : إن يثرب (مدينة رسول الله) كانت أوفر حظا من الناحية الاقتصادية ، فقد جمعت بين الزراعة ، والتجارة ، بينما لم تتوافر إمكانات زراعية لأهل مكة، إلا أننا نستطيع القول : إن أهل مكة كانوا أنشط في التجارة ، وبخاصة في رحلتي الشتاء والصيف ، كما أن حاجة الناس الدينية إلى مكة ، بلد بيت الله العتيق وفَّر لأهل مكة علاقات مع أكثر القبائل العربية ، وغيرها ، وهو ما من شأنه تحقيق مزيد من الازدهار التجاري ...

(١) حسين الحاج : حضارة العرب في عصر الجاهلية ص ١٩٤، ط١ (١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م).
(٢) المكان السابق .

بيد أن وجود اليهود في يثرب وهم من هم في الاعتماد على التجارة والتفوق فيهـا ، أوجد نوعا من التوازن التجاري بين المدينتين العظيمتين .

ومن البديهي أن التجارة ترتبط بالأسواق ، كما ترتبط بالطرق ، وبالأمن الـذي لا يمكـن الازدهار التجاري بدونه .

وفيما يتصل بالأسواق عرف العرب الأسواق الموسمية الطارئـة ، والأسـواق الثابتـة ، وكان قسم منها يبدو عالميا أجنبيا تضعف الصيغة العربية فيه ، لأنه يخضع للنفوذ الأجنبـي ، وهو محكوم بنظم خاصة. مثل سوق هَجَر (بالبحرين) في شهر ربيع الثاني ، وسـوق عمـان التي كانوا يرحلون من سوق هجر إليها ، وسوق البحرين الواقعة على الخليج العربي ، وقسـم آخر هو من صنع العرب أنشأوه بحكم الحاجة إليه كسوق عكاظ المعروف ، وقسم ثالث لـيس له صبغة معينة، يقع على البحر مثل أسواق دومة الجندل ينزلون بها أول يوم من شهر ربيـع الأول ، وهي تقع بين الشام والخليج العربي ، والمشقّر : وهو حصن بالبحرين تقوم سوقهم به أول يوم من جمادى الآخرة . وسوق حُباشة التي كانت في ديار بارق التي تقع من مكـة إلـى جهة اليمين ، ولم تكن من مواسم الحج ، وإنما كانت تقام في شهر رجب . وسوق ذي المجنـة وتقام قرب أيام موسم الحج وتقع قرب مكة ، ويحضرها كثير من قبائل العرب ، وسـوق ذي المجاز : بمنى خلف عرفة ، وكانوا يقيمون فيها ثمانية أيام من ذي الحجة ، ثم يقفون بعرفـة في اليوم التاسع .

ومن الجدير بالذكر أن هذه الأسواق لم يقتصر نشاطها على الجانب الاقتصادي ، بل كانت أسواقا ثقافية ، واجتماعية ، ولربما ذاعت شهرة بعضها الأدبية والثقافية بدرجة كبيرة .

وكان للشعر والغناء المكانة الكبيرة في هذا النشاط الأدبي والفني .

وإلى جانب ذلك كان لهذه الأسواق دور سياسي ، فهي لم تخل من معاهـدات واتفاقيـات وأحلاف تعقد بين القبائل ويشهد عليها عدد كبير من الناس .

كذلك كان يُحكم في بعض الخصومات الفردية عن طريق حكام لهم هيبتهم ولا سيما فـي قضايا التبني والخلع .

ولما كانت تلك الأسواق عرضة لهجمات البدو أو لعـدوان بعـض أصـحاب الثـارات والمآرب الخاصة ، كان لابد من العمل على حمايتها . وقد خصها العرب بثلاثة أنـواع مـن الحماية ،

(أولها) الحماية المكانية أو الطبيعية عن طريق الحصون والأسوار التي أقيمت حولها بعض الأسواق ، لصد العدوان ومنع الغزو ، كحصن مارد القديم . **(ثانيها)** الحماية البشرية التي تتم عن طريق أقوام مأجورين أو متطوعين ، يطلق عليهم اسم (الذادة المحرمين) لأنهم نصبوا أنفسهم لنصرة المظلوم والمنع من سفك الدماء أو ارتكاب المنكر . **(ثالثها)** ما يمكن تسميته بالحماية المعنوية التي تعتمد على الرادع الديني ، ذلك أن العرب كانوا يضفون على الأسواق قدسية خاصة ، بل إن بعض الأخبار تروي أن الأسواق كانت في الأصل مواضع مقدسة وفيها أصنام ، ثم لم تلبث أن غدت أسواقاً للبيع والشراء . كدومة الجندل التي كان فيها صنم وَدّ ، وسوق المشقّر الذي كان فيه صنم اسمه (ذو اللب) كما يذكر المؤرخ (جواد) على أن (بدرا) كان من المواضع المقدسة ، وبه أنصاب يتقرب إليها الناس، وأن (عكاظا) كان مكان أصنام وأنصاب تنحر عندها الأضاحي [1].

ومع أن ظاهرة التخصص الكامل لم تكن ذائعة إلا أننا نعتقد أن كل سوق برز في مجال من المجالات أكثر من غيره ، وكانت السلع المعروضة إما من الإنتاج المحلي أو مما هو مستورد من الخارج ، وقد اشتهر من هذه السلع الأدم الذي كان يباع في عكاظ والشحر ، والبز الذي كان يباع في صنعاء والشحر ، والصبر والمر في الشحر ، والتمر في هجر ، والطيب في عدن، والقطن والكتان والزعفران والأصباغ والحديد في صنعاء .

ومع ظهور التطور الاقتصادي في المدينة في عصر النبي ﷺ بدأ نوع من التخصص يظهر في الأسواق ، فقد اشتهر سوق البقيع ببيع الأنعام ، وكان ابن عمر يبيع الإبل بسوق البقيع زمن النبي ﷺ، كما أنه كانت هناك مجزرة للزبير بن العوام بالبقيع ، ولم تكن هناك مجزرة غيرها. ويؤكد باحث معاصر أن المسلمين عرفوا ظاهرة تخصيص موضع بالسوق لكل بضاعة وتجارة زمن النبي عليه السلام [2]

وكما تاجروا بالأشياء تاجروا بالحيوان وتاجروا بالإنسان أيضا فكانوا يبيعون الإبل والثيران وأنواع الماشية في الجنوب خاصة ، والرقيق في سوق عكاظ وأسواق مكة .

وكانت السلع التي تتاجر بها قريش : الأدم والزبيب والصمغ والطيب والتبر والحرير والبرد اليمانية والثياب العدنية والأسلحة ومصنوعات الحديد والذهب من معدن بني سليم، والسلع المستوردة

(١) حسين الحاج حسن : المرجع السابق ص ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧ (بتصرف)
(٢) يسري أحمد زيدان : النشاط التجاري للمسلمين واليهود في المدينة المنورة عصر الرسالة ، من بحوث المؤتمر الدولي حول التاريخ الاقتصادي للمسلمين : مركز صالح كامل – الأزهر ١٤١٨هـ

من أفريقية والهند والشام ، ومن المنسوجات النفيسة الغالية التي استوردها التجار لبلاد العرب ، الديباج والإستبرق والسندس التي كان يتنافس الأغنياء وذوو الثراء والجاه في اقتنائها [١]

وكان لقريش مورد ثابت في الزمان والمكان ، يضاف إلى تجارتها ، وهو ما تكسبه في موسم الحج ، عن طريق الوظائف الثابتة المتصلة بالبيت الحرام ، وهي وظائف منحت قريشا مكانة اجتماعية ، ووفرت لها دخلا اقتصاديا ، وهي وظائف أقرها الإسلام ، بل وأكرم أهلها الذين قاموا عليها في الجاهلية ، ولم ينزعها منهم ، من باب الوفاء والبرّ ، ومن هذه الوظائف

(الحجابة) أو وظيفة الحاجب الذي كان يمتلك مفاتيح الكعبة فيأذن للناس بالدخول إليها ... وكانت قد آلت إلى جد الرسول (قصيّ) ؛ ثم صارت من بعده لابنه عبد الدار ، وقد تركها الرسول ﷺ لبني عبد الدار بعد فتح مكة [٢].

ومن هذه الوظائف عمارة البيت التي أشار إليها القرآن في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ .. ومن هذه الوظائف (السقاية) التي تمثل أهمية خاصة في بلد يشبه مكة ، يقل فيه الماء العذب الصالح للشرب، وقد كان الماء يوضع في حياض من جلد توضع بفناء الكعبة ومنى وعرفة ، وتملأ بالماء العذب من الآبار ، وكانت هذه الوظيفة تدر أرباحا كثيرة على أهلها وبصورة خاصة أهل مكة ، وغالبا ما كانت تقتصر على الحجيج . ومن هذه الوظائف (الرفادة) وكانت لبني عبد الدار ، ثم أخذها منهم هاشم جد الرسول فكان : (يطعم الناس في كل موسم بما يجتمع عنده من ترافد قريش ، يشتري بما يجتمع عنده دقيقاً ويأخذ من كل ذبيحة أو بقرة أو شاه فخذها فيجمع ذلك كله ثم يحرز به الدقيق ويطعمه للحاج [٣].

وإلى جانب الوظائف الأساسية التي عرفتها مكة في الجاهلية وهي العمارة ، والسقاية ، والرفادة ، والحجابة ، عرفت مكة وظائف أخرى مثل اللواء – أو القيادة – وهي تشبه رئاسة الدولة ، وكانت لقصي ومن جاء بعده ، والسدانة وهي خدمة الحج ، والقبة وهي الوظيفة المسؤولة عن تموين المحاربين ، والأعنة وهي الوظيفة المسؤولة عن تسليح الجيش ، والسفار، وتتعلق بالسفراء إلى البلاد الأخرى ، والحكومة ويقصد بها الكبار المحيطون بصاحب اللواء ، وهناك وظيفة العمارة ويقوم صاحبها بفرض الآداب في البيت الحرام ،

---

(١) د/ حسين الحاج حسن ـــ حضارة العرب في عصرة الجاهلية ، ص ١٩٩.

(٢) حسين الحاج حسن ـــ حضارة العرب في الجاهلية ص١٨٨. وانظر : نواف بن صالح الحليسي : تجارة الأمين محمد ﷺ ، وما بعدها إلى ص ١٦٥ ط الرياض ، سنة ١٤٢١هـ.

(٣) حسين الحاج حسن : المرجع السابق ص ١٨٨، ١٨٩. وانظر : نواف الحليس : المكان السابق.

والمشورة وهم أهل الحل والعقد والرأي ، والأشناق وهم المسؤولون عن جمع الأموال الخاصة بالديات والمغارم ، والأيسار ، وهم المسؤولون عن الأزلام التي تضرب عند هبل كبير الأصنام في جوف الكعبة ، وأصحاب الأموال المحجرة ، وهي الأموال المسماة للأصنام[1].

وهكذا عاشت مكة حياة تجارية واجتماعية ودينية مزدهرة قبل الإسلام ؛ مما مكّن قريشا أن تتبوأ مكانة الريادة في الجزيرة العربية بحيث أصبح العرب ـ كما قال الصديق أبو بكر ـ لا يدينون إلا لهذا الحي من قريش .

وقد كانت أنواع البيوع متعددة في الجاهلية ، ويغلب عليها طابع المقامرة والغرر ؛ ولهذا فإن رسول الله ﷺ حرم أكثرها ، ولم يعتمد إلا البيوع القائمة على الوضوح والصدق والأوصاف الكافية الدالة على السلعة موضوع الشراء ، وإن كانت القاعدة الأساسية هي المعاينة إذا كان ذلك ممكنا .

ـ وقد سموا البيعة صفقة ، ومازال هذا الاستعمال جاريا ، لأنهم كانوا إذا تبايعوا تصافحوا بالأيدي دلالة على عقد البيع وحصول الإيجاب والقبول ، بل إن كلمة (تصافق) أخذت معنى كلمة (تبايع)، أي تبادلا الصفقة أو البيعة [2]، وبيوع الجاهلية أنواع منها (بيع الحصاة) وكان يتم برمي حصاة ترمى جزافا دون تعيين فتقع على غرض أريد اختياره من ثوب أو حيوان .

(وبيع الملامسة) ويقضى بأن يلمس المشتري السلعة دون النظر إليها فمجرد لمسه لها يوجب البيع ،(وبيع النجش أو الفلح) وهو نوع من الغش يشترك فيه البائع والوسيط على خداع المشتري، إذ يتساوم الأولان بثمن مرتفع ، حتى إذا جاء المشتري وسمع ما يدور بينهما انخدع ودفع أكثر مما تستحق السلعة ، وهناك (بيع الزرع) ويشمل على أربعة أنواع هي (المزابنة والمخاضرة والمعاومة والطنى) ، والمزابنة يجري على كل جزاف لا يعرف كيله ولا عده ولا وزنه، (والمخاضرة) شبه المزابنة ، لكنها تقع على الثمار الخضر قبل أن يبدو صلاحها ، وهي بيع الزرع الذي يخرج في العام التالي أو ما يليه ، (والطنى) هو بيع التمر بالكومة لا يعرف كيله.

---

(١) نواف بن صالح الحليسي : تجارة الأمين محمد ﷺ ، ١٥٧ ، ١٦٤ ، ١٦٥.
(٢) الزبيدي : تاج العروس ، مادة صفق.

(وبيع الحيوانات) ومنه (المجر) وهو شراء ما في بطن الناقة قبيل الوضع (والقدوى) وهو شراء ما في بطون المواشي الحوامل عامة (والرجع) وهو بيع الأنثى بعدة ذكور (وبيع المعدوم) وهو جنس من البيع يقوم على بيع شيء لا يملكه البائع بل يسعى ليشتريه ويسلمه للمشتري [1].

ـ وكما ألمعنا ، فقد حرم الإسلام هذه الأنواع من البيوع !!

الاقتصاد والتجارة في الفترة المكية لرسول الله عليه السلام:

من المعروف أن الرسول ﷺ نشأ في مكة ، المدينة التجارية الكبرى جزيرة العرب ، إلى جانب أنها المدينة المقدسة ، وكانت لقريش رحلتان ثابتتان ..إحداهما في الشتاء إلى اليمن لأن اليمن أدفأ ، والثانية بالصيف إلى الشام .

ولما جاء هاشم بن عبد مناف سيد قريش أمر بنوع من التكافل الاقتصادي والاجتماعي بين قريش كلها غنيها وفقيرها حتى اقترب غنيهمم من فقيرهم ، وظهر الإسلام وهم على ذلك، وبالتالي فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالاً ولا أعز من قريش.

وفي هذه البيئة ظهر رسول الله ﷺ ، فكان أمرا طبيعيا أن ينزع الرسول ﷺ إلى الرحلة بعد أن كان يرعى الغنم في صغره ، ومن الوقائع الثابتة أن الرسول ﷺ خرج مع قوافل قريش عندما كان عمره يتراوح بين التاسعة والثانية عشر ، وذلك حين تعلق بعمه أبي طالب حين أزمع السفر إلى الشام للتجارة ، فأخذه معه في الرحلة التي التقى فيها أبو طالب بالراهب بحيرا الذي تنبأ برسالة الرسول ﷺ وخشى عليه من اليهود لو عرفوه ، فخرج به عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام... وهكذا نرى أن صلة الرسول ﷺ بالرعي تارة وبالتجارة تارة أخرى بدأت معه عليه السلام بداية مبكرة ، تأثراً بالبيئة التي يعيش فيها ..

لكن الحدث التجاري الفاصل في حياة الرسول ﷺ وقع حين لجأت خديجة إلى محمد بن عبد الله تستأجره ليضارب في مالها بعد أن بلغها الكثير من صدق حديثه وأيضا لأمانته وكرم أخلاقه ، فلهذا عرضت عليه – كما يقول ابن إسحاق- أن يخرج في مالها إلى الشام تاجرا ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار ، مع غلام لها يسمى ميسرة ، فقبل رسول الله ﷺ ذلك وخرج في مالها ومعه غلامها ميسرة حتى قدم الشام ، ثم باع رسول الله ﷺ سلعته

(١) د/ حسين الحاج حسن : حضارة العرب في عصر الجاهلية ص٢٠٠ـ ٢٠١.

التي خرج بها ، فاشترى ما أرد أن يشتري ، ثم أقبل قافلا إلى مكة ومعه ميسرة الذي حكى عن أمانته وتوفيق الله له ما شاء أن يحكي ، ورأت خديجة أيضا أن أرباحها ضوعفت فرغبت فيه زوجاً ، وكانت أسنّ منه ، وكانت أوسط نساء قريش نسباً ، وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا، وكل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو قدروا عليه. وكانت له نعم الزوج.

ونحن نستخلص من تحليلنا لسلوك الرسول ﷺ التجاري والاقتصادي أنه صلى الله عليه وسلم تعلم التجارة منذ الصغر، وأن سمعته التجارية الطيبة ولقبه (الأمين) جعلا السيدة خديجة تختاره للتجارة أولا ، ثم تختاره زوجا ثانيا ، فأمانة الإنسان سبيل نجاحه وهي أهم رأس مال يستثمره الإنسان في التجارة ، فإذا اجتمع مع الأمانة الصدق - كما اجتمع للرسول ﷺ - توافرت الأرضية التجارية السليمة ، فإذا أضفنا إلى ذلك ذكاء الرسول ﷺ وقوته ومهارته ، أي جمعه صلى الله عليه وسلم بين القوة والأمانة والصدق ، تحقق النموذج المثالي الذي يشير إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾[1] .

ومما نستخلصه من هذا التحليل أيضاً: الإشارة إلى أن الرسول ﷺ ضرب المثل بنفسه على أهمية العمل ، وها هو أمامنا قد عمل قبل الرسالة في الرعي والتجارة ، وها هو بعد الرسالة يعمل في بناء المسجد ، وفي حفر الخندق ، وفي جمع الحطب ، ويعمل في خدمة أهله.

وبما أننا نميل إلى أن الرسول ﷺ كان له نوع إشراف على تجارة خديجة بعد زواجه منها ، وأنه لابد أن يكون له حضوره - إشرافاً وتوجيها وتخطيطاً ومراقبة - فلهذا نؤمن بأن خبرة الرسول ﷺ التجارية المستمرة في مكة قد أعانته كثيراً على تنظيم الشؤون الاقتصادية والتجارية في مكة ، بل إنه أظهر عبقرية في معالجة بعض الأزمات الاقتصادية ، ونحن نعد إنشاءه الأسواق خاصة في المدينة في مواقع متميزة من الأدلة على ذلك .

كما أننا نعد تنظيمه صلى الله عليه وسلم لأسلوب التكافل الاقتصادي والاجتماعي في مجتمع المدينة الناشئ الذي يضم أصحاب البلد -بثرواتهم - ووافدين بلا ثروات وليس لهم إلا خبراتهم السابقة - من أقوى الأدلة على عبقريته الاقتصادية، يضاف إلى ذلك تقديره لقيمة العمل الحرفي واليدوي (الزراعي والصناعي) وفسحه المجال أمام المرأة المسلمة ليكون لها حضورها في بناء الاقتصاد الإسلامي.

إنه الوحي الصادق .. مع العقل الواعي.. ومع الخلق الزكي الراقي!!

---

(١) سورة القصص ، آية رقم ٢٦.

الاقتصاد في المرحلة المدنية

توجيهات الرسول في مجال الاقتصاد :

الاقتصاد : هو الاعتدال بين مرتبتين ،هما : الإسـراف والتقتيـر ، والاعتـدال قـوام الاقتصاد الإسلامي ، وهناك آيات قرآنية وأحاديث نبوية تجمع بين حق الانتفاع مـن المـال ، وبين طرق توزيعه ، مع النهي عن الإسراف والتبذير(١) .

ـ ومن خصائص الاقتصاد الإسلامي التي تتفرَّد بها نظرته هي أن الملك كله والمال كله لله سبحانه وتعالى، وليس للإنسان من الاستخلاف في هذا المال إلا ما يجنيه ـ بعمله وسـعيه ـ من صالح الأعمال المادية والمعنوية الدنيوية والأخروية .

ـ كما أن من خصائصه وجود حق معلوم في المال لغير مالكه ، فالمال فـي المفهـوم الإسلامي هو مال الله ، والناس مستخلفون فيه ، وعليهم رعاية الفقراء (عيال الله) على أساس أنهم مجرد وكلاء لله .

ـ ويضاف إلى هذه الخصائص مشروعية المال وحلّه ، ووضعه في محلـه المشـروع أيضاً ، فلا يعدّ المال في الإسلام ملكاً مشروعاً إلا إذا كان مصدره حلالاً ، وينفق في الوجـوه المشروعة .

ـ وقد أظهر الرسول اهتمامه بسيادة هذا المفهوم الإسلامي العادل المتوازن منذ استقرت له الأمور في المدينة؛ فقد روى الطبري عن ابن عباس قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة كـانوا من أخبث الناس كيلاً ، فأنزل الله : "وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ" فأحسنوا الكيل ، وذلك أن الرسـول كـان كثيراً ما يخرج إلى الأسواق ويقرأ هذه الآية وما بعدها على التجار ، وهـم يزاولـون البيـع والشراء .



والحق أن للمال والاقتصاد مكانة متميزة في الإسلام بيد أن هذه المكانة لا تجعلها هـدفا للحياة ولا مقياسا للرقي ـ إذا وقفا وحدهما ـ فلها حد معلوم ، ويجب أن يكونا وسيلة لا غاية وأن يؤمن المسلم ـ كما رباه الرسول ـ بأن القيم والمعاني الأخرى لا تنفصل عن المادة.

(١) محمد لقمان الأعظمي : مجتمع المدينة المنورة في عهد الرسول ﷺ ص ٣٠٥ – ٣٠٨ (بتصرف) نشر دار الاعتصام – القاهرة.

يقول النبي ﷺ : (ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس) [1]، ويوضح الرسول ﷺ معنى الإفلاس ، وأنه تجرد الإنسان من الأخلاق الحسنة ... يقول النبي ﷺ :

"أتدرون من المفلس ؟" قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار [2].

وهناك حديث آخر يؤكد أن الغنى في نفسه خير ، وأنه لا يأتي بالشر ، ولكن الشر مصدره الشر المستكن في النفوس الوضيعة المادية حتى وإن كانت تملك أعراضا كثيرة . فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ "إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض" قيل : وما بركات الأرض ؟ قال : "زهرة الدنيا" فقال رجل : هل يأتي الخير بالشر؟ فصمت النبي ﷺ حتى ظننا أنه يُنزّل عليه ، ثم جعل يمسح على جبينه ، فقال : أين السائل ؟ قال : أنا. قال أبو سعيد :"لقد حمدنا حين طلع ذلك ، قال : (لا يأتي الخير إلا بالخير) إن هذا المال خضرة حلوة ، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطاً أو يُلمُّ ، إلا آكلة الخضرة ، أكلت ، حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترت وثلطت وبالت ، ثم عادت فأكلت، وإن هذا المال حلوة ، من أخذه بحقه ، ووضعه في حقه ، فنعم المعونة هو ، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع " [3].

ومن أجمع الأحاديث وأشهرها على ألسنة الناس في باب القناعة والصبر الذي لا يمنع من الأخذ بالأسباب قوله عليه السلام : (من أصبح منكم آمناً في سربه ، معافى في جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها) [4] ، وهذا الحديث بالإضافة إلى أنه يقنع النفس بالقليل ، هو أيضا يحذر من أن يسأل الإنسان الناس وعنده حظه من الأمن والمعافاة والقوت .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم ، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي حديث رقم ٦٢٤ط الريان .

(٢) مختصر صحيح مسلم للألباني ، حديث رقم ١٨٢٦.

(٣) اللؤلؤ والمرجان : حديث ٦٢٥.

(٤) صحيح الجامع الصغير : ح : (٦٠٤١) .

ـ وخشية أن يفهم هذا الحديث وأمثاله على غير حقيقته يقول النبي ﷺ : (من سأل الناس تكثرا ، فإنما يسأل جمر جهنم فليستقل منه أو ليستكثر) [١]. ويحدد النبي ﷺ القدر الذي لا يحل للمرء أن يسأل الناس بعده شيئا :"من سأل الناس وعنده ما يغنيه ، فإنما يستكثر من جمر جهنم، قالوا : وما يغنيه ؟ قال : قدر ما يغديه و يعشيه" [٢].

بل إن النبي ﷺ يحث أمته على أسباب الغنى الشامل فيقول : "انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم"[٣].

وفي هذا السياق أيضا يقول النبي ﷺ (لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره ، فيتصدق منه ، ويستغني به عن الناس ، خير له من أن يسأل رجلا ، أعطاه أو منعه ، ذلك بأن اليد العليا أفضل من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول) [٤]. والنبي ﷺ حين يرشد إلى الإنفاق في سبيل الله ، لا يكلف النفوس شططا ، بل يرشدها إلى ما يسهل على النفس إخراجه ، لأنه فائض عن الحاجة ، مصداقا لقول الله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العَفْوَ﴾ [٥]. فيأمر النبي ﷺ صاحبه الفقير (أبا ذر) الذي كان يتزعم حركة إصلاحية كبيرة حتى اشتهر بمحامي الفقراء قائلا له : (أبا ذر إذا طبخت فأكثر المرق ، وتعاهد جيرانك) [٦].

وكذلك يدعو النبي ﷺ إلى الاقتصاد ، والإبقاء على ما يغني الأهل عن تكفف الناس . (إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس) [٧].

ويمتدح النبي ﷺ طائفة من أصحابه عرفوا بمظهر من مظاهر الاقتصاد والتعاون والتنمية، وهم الأشعريون ، حيث يقول فيهم النبي ﷺ "إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم" [٨].

ومن أروع الأحاديث التي تتصل بموضوع الاقتصاد والتكافل الاجتماعي قوله ـ صلى الله عليه وسلم : (من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل

(١) صحيح البخاري : ح : (٦٢٧٨).
(٢) السابق نفسه : ح : (٦٢٨٠) .
(٣) السابق نفسه : ح : (١٥٠٧).
(٤) السابق نفسه : ح : (٥٠٤٦) .
(٥) البقرة ٢١٩.
(٦) صحيح البخاري : ح : (٧٨١٨) .
(٧) اللؤلؤ والمرجان : ح : (١٠٥٣) .
(٨) اللؤلؤ والمرجان : ح : (١٦٢٦) .

زاد فليعد به على من لا زاد له ، فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأى الصحابة أنــه لا حق لأحد منهم في فضل) [1].

ـ ولما كانت التجارة هي أوسع أبواب الرزق ، وكان التجار أقرب من الزراع والصناع في مجال الثراء الفاحش ، وما يؤدي إليه من ترف وجشع فلهذا خصــصّ الرســول التجــارة والتجار بعدد من التوجيهات النبوية الكريمة .

توجيهات الرسول في المجال التجاري :

انطلاقا من الوحي الكريم المنزّل على رسول الله ـ كتاباً وسنة ـ واجه نبيّ الله محمــد عليه السلام الأوضاع الجاهلية الفاسدة في عالم الاقتصاد.. سواء كانت هذه الأوضاع عــادات وتقاليد فاسدة ، أم كانت نظما ترسخت وأصبحت قوانين سائدة .

وبينما نجح الرسول الكريم عليه السلام ـ بالقول والفعل ـ في القضــاء علــى نزعــة احتقار الزراعات والمهن والحرف ، واحتقار القائمين بها .. كذلك نجح الرسول بالقول والفعل ومن خلال النظم المقررة في دولة المدينة ، التي كان الرسول قائدها وقاضيها ومعلمها ـ فــي القضاء على الظواهر التجارية المدمرة للمجتمع ، التي يلجأ إليها اليهــود لامتصــاص ثــروة المجتمع الإسلامي دون عمل أو كدح أو مغامرة ... وحتى العباس عم النبي كان (صاحب ربا) في الجاهلية ، فوضعه الرسول ، وقال :

ألا إن كل ربا الجاهلية موضوع ، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمــون ، وأول ربا موضوع هو ربا عمي العباس ... (كما ورد في خطبة الوداع) ..

كما أن الرسول حث التجار على التسامح في قوله : (رحم الله عبــدا ســمحا إذا بــاع ، سمحا إذا اشترى ، سمحا إذا قضى ، سمحا إذا اقتضى [2]) وهذا يعني – ضــمناً ـ التجــاوز عن المعسرين، والإرجاء في الدين إلى ميسرة وإبطال ما كان معروفاً عنــد العــرب مــن أن الدائن يأخذ من المدين عند تعذّر قضائه لدينه عبداً ، أو ولداً من أولاده ، حتــى يقضــى مــا عليه!!

وحتى لا تصبح الحركة التجارية عرضة لتقلبات النفوس والأهواء أمر الرســول بكتابــة الديون في صكوك .. وكان الرسول يأمر بأن يكتب ما يبيعه ويشتريه .. ومن ذلك ما ورد في

(١) رواه مسلم (١٧٢٨) وفضل أي فاضل عن حاجته .
(٢) رواه الترمذي .

صك بيع للنبي ورد فيه : (هذا ما اشترى العدّاء بن خالد بن هوذة من محمد رسول الله ﷺ اشترى منه عبدا (أو أمه) . (شك من الراوي لا داء ، ولا غائلة ، ولا خبيثة.. بيع المسلم للمسلم) [١].

كذلك حث الرسول على الصدق في التجارة ، وبين أن البركة في هذا الصدق ، فقال: "البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما [٢]. وقد نهى الرسول عن الغش ، فقال :"من غشنا فليس منا" [٣]، كما نهى الرسول عن الحلف لترويج السلعة ، فقال : ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، وذكر منهم المُنَفِّق سلعته بالحلف الكاذب" [٤].

ونهى الرسول ﷺ في بيع البهائم عن (التصرية) فقال صلى الله عليه وسلم (من اشترى شاة مصرّاة أو لقحة مصراة فهو بالخيار ثلاثة أيام فإن ردها رد معها صاعا من طعام لاسمراء [٥]، و(التصرية حبس اللبن فيها خداعا للمشتري) كما أمر الرسول ﷺ بأداء الأمانة إلى أهلها حتى إنه أمر المسلم بأداء الأمانة ولو كانت لخائن فقال الرسول "أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك" [٦].

وقد منع الإسلام الاتجار بالأشياء المحرمة كالخنزير أو الخمر فعن أبي سعيد الخدري قال: كان عندنا خمر لبتيم فلما نزلت (سورة المائدة) سألت رسول الله ﷺ عنه وقلت إنه ليتيم فقال:أهريقوه) [٧]. وقد نهى الرسول ﷺ عن الاحتكار فقال: (لا يحتكر إلا خاطي) [٨]. وقد نهى الإسلام عن بيع الثمار حتى يبدو صلاحها مخافة أن يقع ظلم على المشتري .

وقد نهى رسول الله ﷺ عن تلقي الركبان والشراء منهم حتى يصلوا السوق ، فقد ورد عن نافع عن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ أنه قال : (كنا نتلقى الركبان فنشتري منهم الطعام فنهانا النبي ﷺ أن نبيعه حتى يبلغ به السوق) [٩].

---

(١) رواه الترمذي .
(٢) رواه البخاري .
(٣) رواه الترمذي .
(٤) رواه الترمذي .
(٥) سنن الدارمي .
(٦) رواه الترمذي .
(٧) سنن الترمذي .
(٨) سنن الترمذي .
(٩) رواه البخاري .

كما أن الرسول ﷺ كان يراقب الأسواق ويوجه إلى التخلص من أية سلبيات تظهر فيهـــا، فالرسول ــ عمليا ــ كان أول محتسب وإمام المحتسبين في تاريخ الإسلام .

الرسول ﷺ وبناء الاقتصاد التطبيقي في دولة المدينة

المسلمون في المرحلة المكية :

ـ في الفترة المكية (١ـ١٣ق هـ) لم تكن هناك فرصة أمام المسلمين ـ وهم أفراد مبعثرون مضطهدون ـ للتفكير في إقامة كيان اقتصادي .

ـ وكان حسْبُهم في تلك الفترة أن يتعاونوا على توفير الحدّ الأدنى من التكافل الاجتماعي القائم على التعاون الاقتصادي والإنساني .

ـ وفي هذه المرحلة قام رجل مثل أبي بكر الصديق بشراء بعض المسلمين من العبيد وتحريرهم ، ثم رعايتهم بعد ذلك .

ـ وليس لدينا وثائق تدل على ممارسة المسلمين المهاجرين إلى الحبشة ، ولا المسلمين المضطهدين في مكة ،لأية نشاطات تسمح لهم بأن يشكلوا كياناً اقتصادياً متميزاً ، بل إننا لنعرف أن أثرياء المسلمين وتجارهم مثل خديجة ـ أم المؤمنين ـ، ومثل أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ قد تعرضوا لضغوط اقتصادية كثيرة، ولعل الحصار الذي فرض عليهم في شعب أبي طالب والذي كان من بنوده ألا يُشْتَرى منهم ولا يباع لهم ـ من أقوى الأدلة على وجود روح عامة كانت تفرض عليهم حصاراً اقتصادياً طيلة العصر المكّي بدرجات متفاوتة !!.

ولم يقف ظلم قريش عند هذا الحد الذي يتجاهل أبسط حقوق الإنسان، بل إنها أقدمت على خطوة لم تمارسها إلا أبشع النظم الاشتراكية والشيوعية ، وهذه الخطوة تقوم على مصادرة أملاك المسلمين وأموالهم التي يعجزون عن الهروب بها فراراً بدينهم ؛ فمن المعروف أن المسلمين كانوا يتركون مكة وطنهم أفراداً مختفين في جمح الظلام ، وفي هذه الحالات يصعب حمل أشياء من الأملاك الثقيلة ، مكتفين بالحاجات الأساسية التي لابد منها في الطريق ... فلما هاجر معظم المسلمين متجرّعين آلام الهجرة لأوطانهم ومساكنهم وبعض ذويهم ، اتخذ المشركون القرشيون قرارهم بمصادرة أموال المسلمين وأملاكهم ، وتقسيمها فيما بينهم وكأنّ أصحابها هلكوا ، ومما يُروى في هذا السبيل أن عتبة بن ربيعة ، وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب مرّوا على دار بني جحش وهم مصعدون إلى أعلى مكة ، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يَباباً ، ليس فيها ساكن . فلما رآها كذلك تنفّس الصعداء ، ثم قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها يوماً ستدركها النكباء والحوب

وكان من نتائج هذا القرار الجائر أن الرسول ﷺ عندما دخل مكة منتصراً بعد الهجرة بثماني سنوات سأله أسامة بن زيد قائلاً : يا رسول الله ، أين تنزل غداً ؟ فأجابه الرسول ﷺ: "وهل ترك لنا عقيل منزلاً" (وعقيل هذا هو أكبر أولاد عمِّ الرسول ـ أبي طالب ـ ، ومع ذلك فقد عادى الرسول ﷺ ووضع يده على أملاك الرسول وكأنه هو وارثه) .. وعلى هذا تم تقسيم أملاك المهاجرين من مكة [1].

المؤاخاة الإسلامية : حل إسلامي اقتصادي :

وهكذا كانت المرحلة المكية بعيدة عن كل ما يتصل بوجود كيان اقتصادي ملموس للمسلمين المهاجرين ، وقد هاجروا إلى المدينة وهم لا يملكون شيئاً من شانه أن يقيم حياتهم بطريقة استقلالية ، ولولا قيادة الرسول الحكيمة ، وإلهام الله له لما أمكن قيام دولة المدينة التي لا يملك جزء كبير منها المقومات المادية الأساسية للحياة، ولكنّ قاعدة المؤاخاة التي بنى عليها الرسول العلاقة بين المهاجرين الوافدين، وبين الأنصار أهل المدينة الأصليين هي التي نجحت في استيعاب هذا الموقف والانتصار عليه بدرجة مذْهلة [2]، فقد كان عدد أفراد المهاجرين كبيراً .

ـ وكانت يثرب مدينة صغيرة يعمل أهلها في الزراعة ، وكانت سوقها التجارية في يد اليهود ، ولم يأتِ المهاجرون معهم برأس مال يصلح لمنافسة اليهود.. لكنّ روح المؤاخاة صَنَعَتْ أواصر أقوى من أخوة النسب وأبعد منها مدى ، لدرجة أنهم بهذه المؤاخاة تَوارَثوا لفترة من الزمن ؛ فقد كانت هذه الأخوة قوية لدرجة أن الأنصار قسموا أموالهم قسمين ، وأعطوا قسماً للمهاجرين ، ولعلّ نموذج التعامل بين عبد الرحمن بن عوف المهاجريّ ، وسعد بن الربيع الأنصاري يدلنا على طبيعة العلاقة الاقتصادية والاجتماعية بين المهاجرين والأنصار في واحدة من أرقى صورها ، ذلك أن المهاجرين من جانبهم لم يقبلوا أن يكونوا عالة على إخوانهم الأنصار ....

---

(١) انظر محمد فتح الله كَولَن ، النور الخالد : محمد مفخرة الإنسانية ، جـ٢ ص٨،٩ ، طبع دار النيل ط(١) ١٤٢٠هـ ، بيروت .

(٢) عبد المغني سعيد وفتحي رضوان : القرآن الكريم والاقتصاد ص٣٤٧ ـ مع القرآن الكريم عدد ٤ نشر المقاولون العرب ط٢/ ١٤٠٠هـ .

لقد قال سعد بن الربيع لعبد الحمن بن عوف : إني أكثر الأنصار مالاً فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان ، فانظر أعجبها إليك فسمّها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها . قال : بارك الله لك في أهلك ومالك ، أين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بني قينقاع ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ، ثم تابع الغدوّ، ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة فقال النبي ﷺ "مَهيَمْ" قال: تزوجت، قال :"كم سُقْتَ إليها ؟" قال : نواة من ذهب فقال النبي ﷺ : "أوْلم ولو بشاة"(١).

وهذا النموذج الذي قدمه عبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع يدل علي علاقة اقتصادية واجتماعية بدأت تتشكل في كل مجتمع المدينة ، ومجتمع المسلمين الأوّل !!.

فالحقيقة أن (الإخاء الإسلامي) الذي قدم الأنصار والمهاجرون أروع نماذجه كان تطبيقاً لتوجيهات القرآن ، وكان كذلك تطبيقاً لتوجيهات الرسول الذي يقول : ما آمن بي رجل بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم .... ويقول : أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منه ذمة الله ويقول : من كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له !!

وهذا الإخاء – في هذا المستوى الأعلى الذي قدمه مجتمع المدينة – ظل يعمل عمله في الحضارة الإسلامية ، بتأثير التوجيه النبوي ، الذي جعله فريداً في بابه ، كما يقول ول ديورانت :

"لسنا نجد في التاريخ كله مصلحاً فريداً فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد لإعانة الفقراء ، وبالإضافة إلى الزكاة كان محمد يحض كل موصٍ بأن يخصص من ماله جزءاً للفقراء ".

تُرى ماذا كان يقول هؤلاء لو عرفوا أن الزكاة ليست إلا النهاية الصغرى الواجبة للفقراء في مال الأغنياء؟! (٢) .

بناء الاقتصاد الإسلامي في المدينة :

ذكرنا أن المهاجرين عندما وفدوا إلى المدينة استقبلهم إخوانهم الأنصار – انطلاقاً من قاعدة المؤاخاة – بحب وإيثار لم يعرف تاريخ البشرية مثلهما ، لدرجة أن الأنصار استحقوا أن يقول الله فيهم في كتابه الكريم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ

(١) البخاري (مناقب الأنصار) ، وباب كيف آخى النبي بين أصحابه .
(٢) أحمد شلبي : السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي ص٢٠٩ – ٢١٠ ، نشر مكتبة النهضة المصرية.

إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [1].

وكان مما عرضوه عليهم أن يقسموا بينهم أموالهم وأرضهم ودورهم .. لكن المهاجرين شكروا لهم كرمهم ، وعملوا في شتى مناشط الحياة مع إخوانهم الأنصار... وكان الأنصار أصحاب مزارع فقالوا الرسول ﷺ اقسم بيننا وبين إخواننا النخل ، قال : لا .. فقالوا : تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة ، فقالوا : سمعنا وأطعنا [2].

وقد بدأت عملية مزارعة كبرى في المدينة أعقبتها حركة إحياء للأرض الزراعية المهملة.. وفقاً للقاعدة الشرعية التي وضعها الرسول عليه الصلاة والسلام: "من أحيا أرضاً مواتاً فهي له" [3].

وقد أقطع الرسول عليه الصلاة والسلام علي بن أبي طالب عيوناً بينبع اشتهرت فيما بعد بكثرة إنتاجها ، وعمل فيها علي ﷺ بنفسه .

ـ كما أقطع الزبير بين العوام أرضاً بالمدينة استثمرها في الزراعة في حياة الرسول[4].

وقد اشتهرت الكثير من الأودية التي انتشرت الزراعة بها في عصر الرسول، منها وادي العقيق الذي هو أهم أودية المدينة وفيه أموال أهل المدينة ومزارعهم، كذلك من الأودية المهمة التي استخدمت للزراعة في المدينة وادي (بطحان) وكانت به مزارع بني النضير وأموالهم ، كذلك وادي (مهزور) كانت به أموال قريظة ، ووادي (قناة) وهو ثالث أودية المدينة ووادي (رانونا) .

كذلك من الأودية التي استفيد من أرضها بالزارعة (وادي القرى)، كذلك عرف في الطائف الكثير من الأودية التي استفيد منها بالزراعة أهمها وادي (وج) ويقع غرب الطائف وفيه الكثير من المزارع والبساتين وترفده بعض الأودية الأخرى، كذلك وادي (ليه) ويقع شرق الطائف وبالقرب منها [5].

---

(١) سورة الحشر آية(٩) .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه البخاري .

(٤) انظر نص الإقطاع في الوثائق السياسية لمحمد حميد الله (نقلاً عن : عبد العزيز العمري : الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ، ص٨٦ نشر قطره ١٩٨٥م).

(٥) العمري : المرجع السابق ص ٨٨، ٨٩.

ولم يكن المهاجرون والأنصار وحدهم الذين أقاموا النهضة الزراعية في المدينة المنورة، بل كان ضمن العاملين بالزراعة في المدينة (وغيرها من مدن الحجاز) شباب آخرون من الأجانب الذين أسلموا والتحقوا بالمدينة ، سوريين أو مصريين أو رومانيين أو عراقيين .

ومما يدل على كثرة الموالي ، أن الرسول ﷺ حينما حاصر الطائف وأعلن عتق من ينزل إليه من الموالي . نزل إليه ثلاثة وعشرون عبداً من الطائف . وكانت هناك مجموعة كبيرة من الموالي الأحباش يعملون في المدينة في حقول الأنصار ، ويدل على وجودهم الملموس أنهم حين قدم الرسول ﷺ المدينة يوم الهجرة خرج هؤلاء الأحباش واجتمعوا ولعبوا بحرابهم فرحاً بقدوم النبي ﷺ إلي المدينة [١].

وكانت لهذه الطوائف الشابة تأثيرها الذي لا ينكر في تنمية الزراعة في عهد الرسول ﷺ.



وقد حرص الرسول ﷺ على أن يكون للمدينة كيانها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي المستقل ، اعتماداً على التشابك القائم بين مجموعة النظم في إقامة كيان الدولة وتحقيق هيبتها الداخلية والخارجية .

ـ وعندما دخل لرسول المدينة وأقام سبعة أشهر في بيت أيوب الأنصاري ، قام الأنصار بالتنازل لرسول الله ﷺ عن كل فضل كان في خططهم .. حتى يتمكن من تنظيم المدينة تنظيما يسمح بكفالة إخوانهم المهاجرين ، بل إنهم ـ رضي الله عنهم ـ قالوا للرسول: يا نبيّ الله : إنْ شئت فخذ منازلنا ... فشكر الرسول لهم قولهم ....

وقد سأل الرسول ﷺ أسعد بن زرارة (نقيب النقباء) أن يبيعه أرضاً متصلة بالمسجد الذي كان أسعد قد بناه لنفسه ، فعرض عليه أسعد أن يأخذها الرسول هبةً منه ، لكنه رفض ، ليقيم الموازين القانونية في التعامل ، ودفع ثمنها عشرة دنانير أداها من مال أبي بكر الصديق ﷺ [٢]، ثم أمر الرسول باتخاذ (اللّبِن) فاتُخِذَ ، وبنى به المسجد (مسجد الرسول عليه السلام) ورفع أساسه بالحجارة ، وسقف بالجريد، وجعلت عمده جذوعاً [٣]، وبهذا وضع الرسول

(١) العمري :المرجع السابق ٩٦.
(٢) أحمد بن يحي البلاذري : كتاب فتوح البلدان : القسم الأول ص٥ بإشراف صلاح الدين المنجد نشر مكتبة النهضة المصرية .
(٣) البلاذري : كتاب فتوح البلدان ، المكان السابق .

القاعدة الدينية والأساسية في بناء دولة المدينة نظراً لتعدد الوظائف التي كان يقوم بها مسجده الشريف ، والتي يجب أن يقوم بها كل مسجد .

واعتماداً على تفويض الأنصار (رضي الله عنهم) للرسول في تنظيم أرض المدينة واقتصادها ، بحيث يتحقق نسيج جديد إسلامي (إخائي) للمجتمع الجديد ، قام الرسول بتوجيه التعامل مع (الماء والزرع) تعاملاً يكفل أقصى الفعالية ... فعندما قال له بنو حارثة من الأنصار: (يا رسول الله : ها هنا مسارح إبلنا ومرعى غنمنا ومخرج نسائنا (يعنون موضع السقاية) قال لهم الرسول : من قطع شجرة فليغرس مكانها ، فغرست الغابة [(١)].

وقد قضى رسول الله ﷺ في وادي مهزور أن يحبس الماء في الأرض إلى الكعبين ، فإذا بلغ الكعبين أرسل إلى الأخرى ، لا يمنع الأعلى الأسفل . (وهي عملية داخلة في باب تنظيم المياه بالنسبة للزراعة) . وفي هذا الإطار ورد ــ أيضاً ــ عن عبد الرحمن بن الحارث أن رسول الله ﷺ قضى في سيل مهزور أنّ الأعلى يمسك على من أسفل منه ، حتى يبلغ الكعبين، ثم يرسله على من أسفل منه .

كما روى مالك بن أنس عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم الأنصاري عن أبيه قال : قضى رسول الله ﷺ في سيل مَهْزُور ومُذَيْنَب أن يحبس الماء حتى يبلغ الكعبين ثم يرسل الأعلى إلى الأسفل .

حدثنا أبو مالك بن ثعلبة بن أبي مالك عن أبيه قال : اختُصم رسول الله ﷺ في مَهْزُور وادي بني قُريظة ــ فقضى أن الماء إلى الكعبين لا يحبسه الأعلى على الأسفل.

وحدثنا حفص بن غيات عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : قضى رسول ﷺ في سيل مهزور أن لأهل النخل إلى العقبين ، ولأهل الزرع إلى الشراكين ، ثم يرسلون الماء إلى من هو أسفل منهم .

وعن ابن جُعْدَبة وغيره قالوا : أشرفت المدينة على الغرق في خلافة عثمان من سيل مهزور حتى اتخذ له عثمان ردماً [(٢)].

وفيما يتعلق بالأرض ومعادنها أو زراعتها قام الرسول بتوزيع الأرض المتروكة في المدينة على الصحابة ، فأقطع عليه السلام بلال بن الحارث معادن بناحية الفُروع ، أي أرضاً فيها معادن .

---

(١) البلاذري : المصدر السابق ٩.
(٢) البلاذري : المصدر السابق ص١٠.

وعن جعفر بن محمد أن رسول الله ﷺ أقطع علياً ؓ أربع أرضين : الفقيرين، وبئر قيس، والشجرة [1].

وعن أبي عكرمة مولى بلال بن الحارث المزني قال : أقطع رسول الله ﷺ بلالاً أرضاً فيها جبل ومعدن ، فباع بنو بلال عمر بن عبد العزيز أرضاً منها ، فظهر فيه معدن أو قال معدنان ، فقالوا : إنما بعناك أرض حرث ، ولم نبعك المعادن . وجاءوا بكتاب النبيّ ﷺ لهم في جريدة ، فقبـّلها عمر ، ومسح بها عينه ، وقال لقيّمه : انظر ما خرج منها وما أنفقت وقاصّهم بالنفقة وردّ عليهم الفضل [2].



وهكذا قام الرسول ـ عليه السلام ـ كنبي وقائد دولة ـ بتنظيم المياه والأرض ، والأسواق ، وتشجيع الزراعات والمهن والحرف ، بحيث تحقق لدولة المدينة كيان اقتصادي يواجه المسلمون من خلاله اليهود الذين كانوا يريدون احتكار عصب الاقتصاد في الداخل ، ويواجهون ـ كذلك ـ الكيانات الاقتصادية الخارجية!!

الرسول وبناء مجتمع الزراعة والصناعة والإدارة :

مثّلت توجيهات الرسول سنّته القولية والفعلية والتقريرية ، وهذه السنّة الشريفة شجعت الأعمال اليدوية بوضوح تام ولهذا وجدنا في معظم كتب الحديث أبواباً تتحدث عن الكسب والأعمال اليدوية كعبادة وفريضة غائية ، وقلما نتذكر أن هذه الأقوال الصادرة عن رسول الله ﷺ إنما تمثل تحولاً جديداً وتغييراً جذرياً لتلك المفاهيم السائدة التي كانت تحتقر الأعمال اليدوية في المجتمع العربي قبل الإسلام ...

لقد وضع (البخاري) في صحيحه باباً سماه(باب كسب الرجل من عمل يده) ، ووضع ابن ماجة في سننه (باباً في الحث على المكاسب ، وباباً في الصناعات) ، وفي سنن الدارمي هناك باب يسمى (باب في الكسب وعمل الرجل بيده) ...

وهكذا واجه الرسول ﷺ - بقوة - نزعات الاحتقار للأعمال اليدوية ، التي كانت سائدة ـ بدرجة كبيرة ـ في مجتمع الجزيرة العربية قبل الإسلام .

(١) البلاذري : السابق ١٤.
(٢) البلاذري : كتاب فتوح البلدان ص١٣.

ولقد كان هو نفسه ـ عليه السلام ـ يعمل بيده الشريفة مع أصحابه ؛ فقد عمل مع أصحابه في بناء مسجد قباء ، وفي بناء مسجده الشريف في المدينة المنورة، وفي غزوة الخندق كان يعمل في الحفر أكثر مما يعمل الأفراد العاديون ، وكثيراً ما وجه الرسول أصحابه إلى الحقيقة التي تؤكد أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهم أئمة الدنيا كانوا يقومون ببعض الحرف للكسب والتعفف ويحترفون لأنفسهم ، ولا يقبلون أن يكونوا عالة على غيرهم ، قال صلى الله عليه وسلم :ـ "ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، قال له أصحابه: وأنت يا رسول الله ؟ قال : وأنا كنت أرعاها لأهل مكة بالقراريط ـ يعني كل شاة بقيراط" (١).

وقد روي عن أبي هريرة ﷺ أن الرسول ﷺ قال : "ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإنَّ نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده" (٢).

كما روي عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (كان زكرياً نجاراً) (٣). وهكذا نرى أن رسول الله ﷺ كان دائما يضرب الأمثال للصحابة بالأنبياء عليهم السلام ، وأنهم كانوا يحترفون لأنفسهم ، ويطلبون العيش عن طريق بعض الحرف أو الصناعات اليدوية دون أن يأنفوا من ذلك (٤).

ومع استعانته صلى الله عليه وسلم بالتجارب النبوية السابقة التي تؤكد أن العمل اليدوي سنة من سنن قيام الحضارات ، وأن الحرف والصناعات والزراعات أساسيات في إقامة الاقتصاد الذي يمثل عموداً أساسياً من عُمد الحياة الأساسية .

وفي مواجهة العادات العربية المترسبة التي تحتقر الامتهان والتصنيع ، وتسمي الحداد بالقين ، وتعني به العبد الرقيق احتقاراً للحدادين ، واستعلاءً على مخالطتهم أو مصاهرتهم ، مما جعل اليهود والموالي يحتكرون هذه الصناعات ويجمعون الثروات من ورائها ...

في مواجهة هذا الوضع ، قام الرسول - بالقول والعمل - بالتصدي لهذه الانحرافات الاجتماعية والحضارية، ومما روي عن النبي ﷺ في هذا المجال قوله : (لأن يحتطب أحدكم حزمة علي ظهره خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه)(٥).

(١) ابن ماجة السنن ، جـ ٢٢٧/٢.
(٢) البخاري : الصحيح ، جـ٣، ص٩.
(٣) سنن ابن ماجة ، جـ٢٢٧/٢.
(٤) عبد العزيز العمري ، الحرف والصناعات في الحجاز ص٤٦ ط ١٩٨٥/١قطر .
(٥) البخاري في صحيحه .

كما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : (ما كسب الرجل كسباً أطيب من عمل يده)[1].

كما ورد عن ابن عباس ﷺ : أن الرسول ﷺ إذا نظر إلى رجل فأعجبه قال هل له حرفة ؟ فإن قالوا : لا قال : سقط من عيني ، قيل وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال لأن المؤمن إذا لم يكن ذا حرفةً تعيّش بدينه) [2].

ومن الناحية التطبيقية والعملية قام الرسول ﷺ بكثير من السلوكيات التي كان العرب يأنفون منها ، فقد كان الناس لا يستجيبون لصانع إذا دعاهم إلى طعام ، ولكن الرسول ﷺ كان يخالف ذلك ، فحينما دعاه (خيّاط) في المدينة إلى طعام استجاب الرسول لدعوته واصطحب معه أنس بن مالك ﷺ [3]، وقد دفع الرسول ابنه إبراهيم إلى زوجة (أبي سيف) وهو قين حداد في المدينة لكي ترضعه ، فكان الرسول يأتي إلى منزل أبي سيف الحداد وهو ينفخ من كيره وقد امتلأ البيت بالدخان [4].

وقد قصد الرسول بهذه الأعمال أن يرفع من نظر الناس إلى المحترفين الصناع، حيث أسند إلى زوجة أحدهم إرضاع ولده إبراهيم ، في الوقت الذي كان الناس يتخيرون لأولادهم المرضعات من القبائل الشريفة في البوادي ، وفي الوقت نفسه كان يختلط بالصناع ويقبل دعواتهم ويزورهم ويحرضهم على العمل ، ويجعله عبادة وقربى لله سبحانه وتعالى .

وقد اشتهرت في عصر الرسول صناعة أسلحة كثيرة منها:

١ـ الدبابة : وهي عبارة عن عربة كانت تستخدم للاتقاء من السهام ، وكانت تصنع مغطاة بالجلد الغليظ وتستخدم لهدم الحصون .

٢ـ الضبر: كان يصنع من الخشب المغطى بالجلد ويستخدم للاتقاء من السهام من الخلف .

٣ـ المنجنيق : هو سلاح حربي يستخدم لرمي الأعداء بالحجارة .

٤ـ الحسك : هو سلاح ذو أشواك يغرس حول الحصن والمعسكر حتى تصير الطريق صعبة شائكة [5] .



(١) سنن ابن ماجة .

(٢) الخطيب البغدادي . نقلاً عن العري مرجع سابق ص٤٥ ، مرجع سابق ص٤٥.

(٣) صحيح البخاري .

(٤) الإصابة جـ ٤، ص٩٨.

(٥) محمد تقي : الإسلام تشكيل جديد للحضارة ص٢٢٠ دار العلوم بالرياض ١٤٠٢هـ .

وتدلنا الوقائع ــ يقين ــ أن الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ وصحابته الأخيار الذين استوعبوا توجيهاته الشريفة حول الفرضية الكفائية ــ والعينية ــ أحياناً للعمل اليدوي ، قد مارسوا عدداً كبيرا من الحرف والصناعات ، بعد أن أزال الرسول الكريم بتوجيهاته ــ الحواجز النفسية والاجتماعية التي كانت ــ حائلاً ــ بين العرب ــ ومزاولتها .

ومن الحرف التي انتشرت في دولة المدينة ، الصيد البرّي والبحري ، وجمع الحطب ، والرعي وتربية الحيوانات ورعي الغنم وتربية الإبل وتربية الأبقار وتربية الدواجن وكراء الحمير والمراعي والزراعة في الحجاز وري المزارع . وكذلك صنعة البناء مثل بناء المساكن، البناءات الدينية ، حفر الآبار ، النجارة ، وصناعة السلاح مثل : صناعة الرماح ، والسيف ، والخنجر والأسلحة الدفاعية : مثل : الترس، الدروع ، البيضة والمغفرة (وقاء الرأس) ، والدبابة (آلة خاصة بمهاجمة الحصون فقط) والمنجنيق (سلاح يقذف الحجارة الكبيرة أو النار) والحسك (أشواك من الخشب أو الحديد تمنع الخيل من مهاجمة معسكر الجيش) . وكذلك الحرف العلمية والصحية مثل القراءة والكتابة والترجمة والطب والتمريض والحجامة والعطارة والصيدلة والتجميل والحلاقة .

وكذلك الحرف العامة مثل : الحدادة والصياغة والتعدين والدباغة والخرازة والنسيج والخياطة والخواصة والصباغة والأجراء [١].

ولم تكن المرأة المسلمة بعيدة عن هذه الأعمال الحرفية في مجتمع المدينة الذي بناه الرسول ــ عليه السلام ــ .

وتعدّ كعيبة بنت سعد الأسلمية نموذجاً للمرأة المسلمة ، فكعيبة بايعت بعد الهجرة ، وقد شهدت خيبر مع الرسول ﷺ ، وقد أقامت لها في مسجد الرسول خيمة تداوي فيها المرضى والجرحى ، وكان سعد بن معاذ حين رمي يوم الخندق عندها تداوي جرحه حتى مات [٢] ، وبديهي أن هذا كان بإذن من رسول الله .

وفي أم سنان الاسلمية [٣] ، نجد النموذج نفسه الذي قدمته كعيبة، فقد ورد أن أم سنان قالت للرسول لما أرد الخروج إلى خيبر : يا رسول الله أخرج معك أخرز (السقا) وأداوي

(١) هناك حصر في كتاب الحرف والصناعات في الحجاز للدكتور عبد العزيز العمري لهذه المهن بكثير من التفصيل فيرجع إليه .
(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٨/ ٢٩١.
(٣) ابن سعد : الطبقات ٨/٢٩٢.

(المريض) و (الجريح) إن كانت جراح وأبصر الرجل؟ فقال : أخرجي على بركة الله فأن لـك صواحب قد كلمتني وأذنت لهن من قومك ومن غيرهم.

وفي المجال التجاري مارست المرأة البيع والشراء ، ففي طبقات ابن سعد عـن قيلـة أم بني أنمار قالت : جاء النبي ﷺ إلى المروة ليحل في عمرة من عمره فجئت أتوكأ على عصا حتى جلست إليه فقلت : يا رسول الله إني امرأة أبيع وأشتري فربما أردت أن اشتري السـلعة فأعطي بها أقل مما أريد أن أخذها به ثم زدت حتى آخذها، بالذي أريد أن آخذها به ، وربما أردت أن أبيع السلعة فاستمتُ بها أكثر مما أريد أن أبيعها به ، ثم نقصت حتى أبيعهـا بالـذي أريد أن أبيعها به ، فقال لي : لا تفعلي هكذا يا (قيلة) ولكن إذا أردت أن تشتري شيئاً فـأعطي به الذي تريدين أن تأخذيه به أعطيت أو منعت ، وإذا أردت أن تشتري شيئاً فاسـتامي الـذي تريدين أن تبيعيه به أعطيت أو منعت [1]

لقد كان من فضل الله على المسلمين أن دولة الإسلام الأولى قامت في مدينـة (يثـرب) ومن المعروف أن المدينة تكونت من عناصر سكانية مختلفة (الأوس والخزرج واليهـود ثـم المهاجرين) .... وقد استلزم هذا التباين أن يكون ثمة دستور يحكم حركتها ، فكـان دسـتور المدينة الذي وضع فيه الرسول ﷺ ضوابط التعايش في ظـل (الدولـة الحاكمـة) بـين كـل الطوائف، ثم كانت (المؤاخاة) صمام الأمان لمواجهة احتمـالات مكائـد التشـكيك والخيانـة والنفاق، وكان المسجد هو قلعة الحكم والتربية ، والقضاء والعبادات والتعليم .. وبهذا نشـأت (جماعة المسلمين) وفق عقد اجتماعي حقيقي من جانب ، وفي مدينة ـ بالمعنى الكامل للمدينة – من جانب آخر ـ وتبع ذلك ضرورة نشوء مرحلة في المدينة تـرفض البـداوة ، وتسـعى بالفكر والعمل ، لكي يكون لها طابعها الخاص وروحها المتفردة ، ونظمها المعبرة عنها فـي شتى المجالات !! .

ومن الجدير بالذكر أنه عندما دخل الرسول ﷺ المدينة المنورة (يثـرب) وجـدها بلـداً زراعية بالدرجة الأولى ، بينما سيطر اليهود على حركة التجارة والأسواق ، وفي المقابل كان المهاجرون تجاراً ، وليسوا زراعاً ، فكان لابد لهم من منافسة اليهود في النواحي التجاريـة ، ولهذا فعندما أحس الرسول ﷺ بمعاناة المهاجرين ، وسيطرة اليهود على التجارة فـي المدينـة عن طريق سيطرتهم على سوق بني قينقاع ـ قام صلى الله عليه وسلم ـ بإنشاء سوق خاص بالمسلمين في موضع سوق المدينة ،ثم قال للمسلمين :هذا سوقكم ، فلا ينقص منه أولا يضيق،

(١) المكان السابق .

ولا يؤخذ فيه خراج ، وكان اختياره صلى الله عليه وسلم لهذا السوق موفقاً ، حيث كان موضعه بمثابة المدخل للمدينة للقادمين من الشام أو مكة أو اليمن وغيرها ، مما جعل للسوق الإسلامي السبق في تلقي الوفود والتجار ، حال وصولهم إلى المدينة [١].

ومن ناحية أخرى، أرسى صلى الله عليه وسلم قواعد كثيرة من وظائف الإدارة، مثل التخصص، وتقسيم العمل ، واللامركزية ، وكان يوجه النصح إلى كل من يلي للمسلمين عملاً، وقد بدأت تظهر في الدولة الإسلامية بعض الوظائف الإدارية ، كما بدأت تتحدد قواعدها، وأساليب عملها [٢]، وعلى أساس احترام العدل والشورى والمبادئ الإسلامية العامة .

وليس ثمة ناحية من النواحي إلا وللرسول ﷺ فيها توجيهات قوليه وفعلية وتقريرية ، بحيث إنه صلى الله عليه وسلم قد قدم من خلال إقامته لكيان (دولة الإسلام في المدينة) النموذج الأمثل للدولة الإسلامية التي تواجه الأوضاع المتخلفة والظالمة بالبدائل الحضارية وبالبناء والعدل وليس بالتركيز على النقد والهدم ، وبالعمل المصاحب للفكر ، مما جعل (دولة المدينة) هي النموذج الأمثل ، والمقياس الذي يقاس عليه للدولة الإسلامية في التاريخ الإسلامي .

ومن هذه المسيرة العملية يستخلص الاقتصاديون المعاصرون بعض القواعد الاقتصادية النظرية التي يستند إليها النظام الاقتصادي الإسلامي الذي أقامه الرسول في عقول المسلمين وفي حركة الحياة ، مشيرين إلى أن هذا الأساس النظري الاقتصادي الإسلامي يتضمن أكثر من نظرية علمية منبثقة من آيات القرآن الكريم، والحديث الشريف .

ويرى هؤلاء الاقتصاديون أنّ المبادئ الأساسية المستخلصة من البناء الاقتصادي العلمي الذي أقامه الرسول يتلخص في المبادئ التالية :

أولاً : نظرية دورة الإنفاق الخيرة . وهي تطبق في أوقات الرخاء والكساد معاً (فلا جمود ولا توقف ولا اكتناز ولا احتكار ولا ربا) .

ثانياً : الحدّ من أرباح الوساطة ، وتحريم الربا والاستغلال بصفة عامة .

ثالثاً : الملكية الخاصة وظيفة اجتماعية وليست حقاً مقدساً . ولا يجوز أن تنفصل عن العمل لتصبح أداة لاستغلال عمل الغير .

---

(١) العمري: المرجع سابق، ص١٢٨.

(٢) انظر محمود المرسي لاشين :التنظيم المحاسبي للأموال العامة في الدولة الإسلامية ص٤٥ـــ٤٧ طبع دار الكتاب اللبناني بيروت ط١ سنة ١٩٧٧م.

رابعاً : إقامة مجتمع السواسية والمقاسمة المقّنعة والطوعية في الأموال والخيرات [1].

وهكذا أقام الرسول مجتمعاً مؤمناً ملتزماً له فكره الاقتصادي المربوط بقواعد الإيمــان ، والقائم على الاقتناع الداخلي الذي يصل حدّ الكفاية والزهد والاستعلاء ، ويقــدم أروع صــور التكافل الاجتماعي القائم على الحبّ والإخاء والإيثار .

ولم يكتف الرسول بهذا البناء الاقتصادي القائم على التكافل ، بل عمل على بناء الإنسان جسداً كما بناه عقلاً وروحاً وفكراً .. ولهذا أمر بالرياضة ولا سيما الرمي ، وحث على القوة، وفضل المؤمن القوي على المؤمن الضعيف ، ووجّه إلى علمــي الوقايــة والعــلاج ، وعلَّــم المسلمين أن لكل داء دواءً إلا الهرم ، فعليهم أن يعملوا على الحفاظ على صحتهم والعلاج إذا مرضوا .

قال رسول الله ﷺ في حديث رواه البخاري وابن ماجة رحمهما الله : "ما أنــزل الله داء إلا أنزل به شفاء" [2] ، ومعنى هذا التوجيه أنه ليس هناك من مرض إلا وقد خلق الله تعالى له دواء وشفاء ، وليس هناك أي قول آخر يشجع على تحصيل العلم في ميدان الطب مثــل هــذا القول الوجيز الجامع والشامل ؛ فقوله هذا ــ عليه السلام ــ يعني أنه ما من داء إلا وله دواء، أي يمكن العثور على أدوية لكل الأمراض الموجودة إلا الشــيخوخة وذلــك بعــد توفيــق الله وعنايته .

وفي رواية أخرى : "لكل داء دواء" [3]، وفي حديث آخر : "تداووا فإن الله عز وجل لــم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد : الهرم" [4].

ورسول الله ﷺ بهذه الأحاديث وبأحاديث أخرى مشابهة يدعو أهل العلم جميعاً، وجميــع من آتاهم الله موهبة وفضلاً ، وجميع الباحثين إلى تكثيف جهودهم وبذل مســاعيهم لاكتشــاف الأدوية ووسائل العلاج .

وهناك أحاديث كثيرة مروية عن رسول الله ﷺ في علم الصحة ، ولاسيما فيما يتعلق بــ "الطب الوقائي" الذي يشكل جزءاً مهماً من علم الطب . وهذا شيء طبيعي، ذلــك لأن عــلاج

---

(١) فتحي رضوان وعبد المغني سعيد : مع القرآن الكريم ، مرجع سابق ، ص ٣٤٩.

(٢) البخاري ، الطب ،١، ابن ماجة ، الطب ١ . وانظر : محمد فتح الله كولن : محمد مفخرة الإنسانية ج١ ص ١٣٨ ، ١٣٩.

(٣) مسلم : السلام ، ٦٩.

(٤) الترمذي : الطب ،٢.

المرض ليس هو المهم ، بل الأهم منه هو حفظ صحة الإنسان ، وحمايته من الوقوع في المرض [١].

ولا عجب ألا يجدَ الأطباء النصارى الذين أتوا إلى المدينة المنورة في العهد النبوي عملاً ؛ وذلك بفضل رعاية المسلمين لوصايا الرسول ﷺ في هذا الموضوع رعاية تامة . فبينما كان الرسول ﷺ يقوم بإصلاح أمراض القلوب والنفوس ، كان يقوم أيضاً بحماية المؤمنين من الأمراض الجسدية ، أي أنه كان يقوم بحفظ أتباعه وصيانتهم من الأمراض النفسية والقلبية والجسدية كلها [٢]. وذلك انطلاقاً من أن الإنسان كائن مركب ، وأنه إذا فسد منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ، وانطلاقاً من أنَّ العقل السليم ، والروح السليمة ، يحتاجان لجسد سليم، فالإنسان كلٌّ لا يتجزأ .

وصلى الله على محمد .. نبيّ الإنسانية والعدل والرحمة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

(١) النور الخالد : محمد مفخرة الإنسانية ، محمد فتح الله كَولَن ، (المكان السابق).
(٢) المرجع السابق ، ج ١ ص١٤١ـــ ١٤٢.